نافذة

الشرق والغرب

البراءة والإجرام متلازمتان متوثبتان مسكونتان في جوهر الحياة المراقبة من المشهد الإنساني، صيغتا من أجل التصارع الخفي الظاهر على الحياة ومشاهداتها التي تتكون من محصول الأجوبة المنطوقة، فالأحكام الصادرة لا تصح بأسرها، ولا تبطل من أصلها، حينما نمعن النظر فيها، وننشط الإصغاء إليها، ونحلل النتائج من خلال الفوائد المنعكسة على المصلحة العامة بعيداً عن الهوى وإيثار التعصب، نجد أنَّ أي قضية تحمل وجهين، الأول وجود الحق، والثاني وجود خلافه. فالحاكم حاكم بالاعتبار لأنه المالك الوحيد لحقيقة الأسرار، فإن أصاب فإنه حقق وجوده في العام، وتشابه مع فكرة الكلي في الخاص من خلال نشر العدالة، وإن أخطأ فسيكون بنسبة المنثور من مخالفات الحقيقة المسكونة في فكر الكلي.

أعكس هذا على صيغة الحكم والحاكم، فكلاهما يحكم الآخر، والنجاح لديهما مهمٌ في تشكيل التعاون والفشل الذي لا يكون من قلة المهارة في العمل، إنما إرادة الحكم أن تفشل هذا الحاكم أو ذاك، هل عرفنا الحق؟ كيف بنا لا نجيد العمل به؟ ولماذا نغض الطرف عنه؟ فالذي لا يريد شيئاً يكون صاحب الحق ومالكه، والحق وزنه، وزن كل الأشياء، أما الذي يريد شيئاً فلا وزن ولا حق له. من يحدث التوازن، وما ماهيات الوزن في الدفاع عن الوجود وغزوه في آن؟

أدخل من عنواننا لأشير إلى ما يحدث في عالمنا الجديد الذي أسس على خبث إجرامي رهيب بعد أن قام من ذات الكهن الذي أسسه روتشيلد، ومعناه في الألمانية العلامة الحمراء، وللأسف استخدمت فيما بعد شعاراً للثورات والسجاد الأحمر الذي يفرش أثناء استقبال الرؤساء والاحتفالات الرسمية، واسمه الحقيقي (ريتشارد إكانان) ووجه أبناءه بأن المال قوة، وقوته تعني حكم العالم به، ومن أجل الحصول عليه مستعيداً نظرية أجداده.

بالمال نحكم، وللحصول عليه والسيطرة على العالم به عليكم بنشر الفساد في العالم الذي يحمل سمة واحدة ألا وهي سطو الإجرام على البراءة وقهر الغرب للشرق، وبمعنى أدق: إن هذا الذي رسم الغرب، وأوجد له مساراته هيأ كل شروط الشر والسطو على الأمم بعدما سطا على أوروبا، وسلبها قرارها، وذهب بمالها مؤسساً للغرب وواضعاً قواعد مرعبة لحكم العالم؛ أي منذ قيامة العالم الجديد وطباعة الدولار.

قرروا حكم العالم بطرق النفاق والمراوغة والتلاعب بمصير الأمم والمجتمعات والدول، وإن كانت الكهانة قوة إلهية تمنح لشخص دون آخر، فإن الحكم صورة إلهية ترسم على شخص، بعد أن يختار أدواته، يديرها بالعلم والمعرفة، واللين والقسوة، بالتمييز بين الغبن الاجتماعي والاقتصادي والسياسي، بين الرفاه والفقر الطبقي؛ أي بين الشرق والغرب، بين الشمال والجنوب، طبعاً وصل الغرب إلى ما وصل إليه بعد أن امتص كامل فكر الشرق وخالطه، مزجه، عالجه، تشربه، وتغذى منه وعليه، حتى صفا واصطفى، فنما وتضخم وبنى القوى، وترك للشرق حزناً، ورمى عليه شره، فاستقبله ببراعة إجرامه، ومارسه ببشاعة، كفره فأخذه، وأجراه بينه بكفاءة، قتلٌ وذبحٌ ورجمٌ وموتٌ ارتضاه واعتبره قدره بدلاً من إيمانه بالحياة، أخذ منه البراءة، ورمى فيما بينه فكرة الجناة والإجرام، أودعه فلسفة التمسك بأن الإله له، وله الإرادة في ذلك، وأنه أي الإله فرحٌ بما يعمل.

عصر إجرام عاشه الغرب قبل قرون عديدة، جسد خلاله أبشع صور القتل والذبح والحرق والسلخ والتدمير والسلب، وكان الشرق في سبات عميق، براءة الأطفال تحكمه، أودعه التوهان بين الشك واليقين، بين الإيمانِ بالنهوض والاستفاقة، بين الخضوع للفاقة والتدين، تمسك بجنان الله والخمر والغلمان والحور العين، والتوهان بين جمهورية الله وممالك الأنبياء وتفاسير السنن والدعاة والمبشرين، ودفع به للتعلق بالملل والمذاهب والطوائف من دون فهم عميق لمفردات أن لا إكراه في الدين، وأنشأ أودية عميقة بينه وبين الثقافة والإبداع والتطور والتقدم، بين الحقوق والواجبات، بين الفلسفة والعلوم، بين الرقي والسمو، وعلقه بكل أشكال التخلف والتقهقر والرجوع إلى الوراء، قتل التنفس، ومنع التنفيس والتعبير، ولم يدرك أنَّ كل من يتنفس ينفس، حتى الصبح يتنفس، لم يستوعب ضرورات التنفيس قبل الأزمات، ومعها وبعدها حارب الحرف والكلمة وبناء الجمال والسعي وراء الحكمة، لم يستوعب الفرق بين الحرية والتحرر، لم يحارب عدوه الأساس وعدوانه المستمر عليه؛ بل اتجه لإنشاء حروب بين أبنائه وأصدقائه وأشقائه.

قبل قرن ونيف هاجر أجدادنا إلى الغرب بحثاً عن الرزق والعلم، هربوا من السبات، وهاهم اليوم أبناؤنا يفعلون الفعل ذاته، ولكن هرباً من الانفلات والقهر وسيطرة الروح والعواطف والدين.

دعونا نسأل من المخطئ؟ الشعوب، الحاكم، الأداء المتحرك فيما بينهما، الشرق برمته المصر على الاستمرار في استمراء ما هو عليه وارتضائه، الشرق الذي تقبل ما يمارس عليه من الغرب إلى متى سيبقى هذا الشرق على ما هو عليه؟ إلى متى يرفض عقله العاطفي الفطري الديني التطور؟ إلى متى ننبذ النهوض مما نحن عليه؟ إلى متى يبقى غذاء هذا الشرق الرئيس الخوف الذي لم يستطع أن يبدله بالحب؟ مؤكد أن لديه أشياء مفقودة لم يقدر أن يعرفها أولاً. وثانياً لم يسعَ للبحث عنها. كيف للحاكم والمحكوم أن يتجنبا القدر المحكومين إليه بالرجاء والأمل بدلاً من الاتجاه إلى ثقافة العمل؟ ما معنى الأمل إن لم يسبقه العمل؟

مشكلة الشرق إيمانه بأنه أنثى، وأنَّ الغرب ذكر، وأنَّ للغرب حقَّ القوامة عليه، وأعود إليه من باب اعتقاده أنه اخترع الشمس أو أنجبها، وأنها ملكه وحده، وكذلك فعل بالقمر، وأنه ينيره على الرغم من أن هناك في البعيد من قدَّم له عكس ذلك، بعد أن وصل ذاك المتأمل إلى فكرة البزوغ والأفول، إلا أنه أصرَّ على أن يبقى بريئاً من كل شيء، عاطفياً ومتديناً تخلى عن علمه وعلومه مذاك الزمن، واتجه لما رسم له، فتتالت عليه الغزوات، واستمرت من دون توقف، وهو مصر على استقبالهم وإضاعة فرص إثبات وجوده، وكلما حضر حاكم منه متصالح مع ذاته، مع جوهره، مع ضميره، مع إلهه تكالبت عليه جموع الغرب ومن الجهات الأربع، وتداعوا عليه كما يتداعى الأكلة إلى قصعتهم، والسبب إدراكه العميق لما استلبه الغرب، وتعريفه الأدق لما يعنيه، وأنَّ الغرب فكر موجود في عمق الشرق، لكن إدارته الموجودة في أقصاه تقوده إلى ما يسمى لدى الشرق غرب، والأمثلة ليست بالكثيرة في عالم الغرب المسيطر من قلبه، والذي يتهم من يخالفه بالمارق والشاذ والشر المستطير، ويتشابه مع المتشددين من المتدينين الذين يتهمون الخارجين عنهم بالمهرطقين والمتزندقين والكفرة الأشرار أمثال سورية، كوريا، إيران، كوبا، فنزويلا، وضمن المخطط الخفي روسيا والصين.

غربٌ لا يهدأ في مخططاته، وآليات تنفيذه تسير بدقة للاستيلاء على كامل الحياة الأرضية والكونية، فهل ندرك ما طرحه سيد وطن مهم جداً يعتبر رمزاً من رموز حياة الشرق الذي قدم معنى وفلسفة جديدة عن مفاهيم الشرق والغرب؟

د. نبيل طعمة

عشرون عاماً على رحيل فهد بلان

صوت الرجولة وسفير الأغنية السورية الخالد

فهد بلان

فهد بلان وابنه

...ومريم فخر الدين

...وفريد الأطرش

| وائل العدس

تصادف هذه الأيام الذكرى العشرين لرحيل الصوت الرجولي الذي استطاع بصوته القوي الصافي وأدائه الفني نقل تراث وبيئة بلاده إلى العالم وجعل الأغنية السورية مألوفة لدى المستمع العربي.

من منا لم يسمع «يا بنات المكلا» و«جس الطبيب» و«تحت التفاحة» و«يوم على يوم»؟ لاشك أنه الفنان الراحل فهد بلان الذي صدحت حنجرته بتلك الأغنيات التي خالطت الدم والروح وألهبت المشاعر الوطنية والعاطفية.

طموح كبير

ولد بلان عام ١٩٣٣ في قرية «الكفر»، والده حمود بن أحمد بلان الذي عمل في بداياته في فلاحة الأرض قبل أن يصبح دركياً، وهو يملك صوتاً قوياً وجميلاً، ويجيد العزف على آلة «الربابة»، حيث اكتسب فهد من أبيه الميل إلى الموسيقا والغناء، عمل في طفولته في أرض أبيه، وكان يسلي نفسه أثناء عمله في غناء الموروث من العتابا والميجانا والشروقي، وأغلب الذين كانوا يعملون معه، كانوا يتوقفون عن العمل ليستمعوا إلى صوته، وكان الشجن هو طابع غنائه الذي يعكس معاناته، وهو مازال طفلاً لم يشتد عوده ولم يزد عمره على عشر سنوات.

كانت طموحاته أكبر من أن تتسع لأحلامه، وآماله في أن يصبح فناناً مرموقاً، وازدادت رسوخاً وقوة في نفسه على الرغم مما حققه من بدايات ناجحة في الغناء في الحفلات والمناسبات الاجتماعية.

منذ أواخر الخمسينيات بدأت حياته الفنية عندما قدم إلى دمشق من السويداء، مكتسباً منها الصوت الرجولي المستمد من الحجارة الصلبة الزرقاء، وعذوبة صوته من عذوبة النسائم العليلة، مشاركاً في الأعراس والمناسبات الاجتماعية يغني الفلكلور الجبلي.

امتحان صعب

وفي عام ١٩٥٧ تقدم إلى امتحان القبول كمردد في جوقة الإذاعة السورية، ولم يكن الامتحان سهلاً فقد كان عليه أن يمثل أمام قطبين من أقطاب الموسيقا في سورية وهما يحيى السعودي ورياض البندك، فغنى أمام اللجنة أغنيات لفريد الأطرش ومحمد عبد الوهاب، ولكنه لم ينجح على الرغم من إتقانه لأغانيهما لسببين، الأول خوفه وارتباكه أمام اللجنة والثاني اختياره لأغنيات ينشز بها المطرب المبتدئ، وتساءل مع نفسه: لماذا لا أغني شيئاً من تراث بلادي؟ وارتفع صوته أمام اللجنة وصدح بأغنية:

هين ضرب السيف يابا.. هين عليّا
وأنا أشوفك قدام عيني.. زعلان عليّا

وقال عن تجربته: «لم أكد أنتهي من غناء مطلع الأغنية وأبدأ حتى وجدت علامات الإعجاب واضحة على اللجنة».

بعد ذلك رشح ليكون نجم الغناء في مسرحية «المنحوس السادس عشر» فقد أراد أن ينتقل من الغناء خلف ميكرفون الإذاعة إلى الغناء من فوق خشبة المسرح وأمام الجمهور.

اللون البدوي

وفي أواخر عام ١٩٥٧ تعرف على الملحن سهيل عرفة، وكان أول عمل مشترك لهما أغنية «يا بطل الأحرار» التي نظمها راشد الشيخ، وفي مطلع عام ١٩٥٨ غنى ابتهاجاً بقيام الوحدة بين «سورية ومصر»، ثم غنى بعدها في الشهر السابع من عام ١٩٥٩ أغنية «مشغول بحبك» التي نظمها مسلم برازي ولحنها راشد الشيخ، وفي التاسع من كانون الأول عام ١٩٥٩ غنى من كلمات حسن البحيري وألحان عبد الفتاح سكر أغنية «لعينيك يا حرية».

وبعد أن التقى الفنان شاكر بريخان في إذاعة «حلب» قدما مع المطربة الراحلة «فضيلة مقلة» المعروفة باسم «سحر» أغنية «آه يا قليبي».

صبغت أغانيه منذ حينها باللون البدوي، وتجسد اللون الجميل معه بالأداء الأجمل، إلى أن التقى فنياً عبد الفتاح سكر الذي قدم له ألحاناً كثيرة وجميلة، خاصة أغنيتهما الأولى التي تعتبر لوحة غنائية شعبية «لركب حدك يالموتور»، وتوالت الأغنيات بعدها «واشرح لها» و«ألفين سلام» و«شفتا أنا شفتا» وغيرها.

في بيروت

ثم انتقل إلى بيروت حيث ظهر في برنامج «ألوان» الذي كان يعده ويقدمه الفنان نجيب حنكش الذي أطلق عليه لقب مطرب الرجولة، في حينها قدم له سهيل عرفة لحناً جسد لونه الرجولي في أغنية «بالأمس كانت تهوى وجودي»، وفي بيروت كانت شهرته كبيرة جداً، وقدم فيها أغاني عديدة ومثل أفلاماً سينمائية تصل إلى أكثر من ثلاثة عشر فيلماً مشاركاً فيها البطولة مع نخبة من نجوم السينما العربية من لبنان ومصر ولاسيما الفنانة القديرة مريم فخر الدين التي كان من نتاج فيلمهما «فرسان الغرام» أن وقعا في الغرام والزواج، وكذلك اشترك مع صباح في فيلم «عقد اللولو» و«أين حبي» و«حبيبة الكل»، والمطربة نجاح سلام في فيلم «يا سلام على الحب».

إلى مصر

ثم انتقل إلى مصر فأقام فيها ما يزيد على تسع سنوات في القاهرة استطاع أن يسيطر على الساحة الغنائية سواء بألحانه السورية أم بالألحان التي قدمها له الملحنون اللبنانيون والمصريون.

نجاح الأغاني الشعبية التي قدمها له عبد الفتاح سكر وسهيل عرفة وشاكر بريخان، وفيلمون وهبة الذي قدم له «يا خيال يارايح على الجولان» و«عباية مقصبة» وملحم بركات «ما اشتقتيش» و«قوم تعلل يا مدلل» وعفيف رضوان «أنا صياد شارد بالبراري» وحسن غندور موشح «دع الملامة»، دفع بالعديد من الملحنين المصريين أن يقدموا له ألحانهم، فلحن له بليغ حمدي «بحري الهوى» و«من غير ميعاد» و«على كفي» وخالد الأمير «ركبنا على الحصان» و«دوري دوري» و«أهلانين وسهلانين».

وكذلك سيد مكاوي قدم له «يابو الطاقية» وموشح «مال واحتجب»، وهذا الموشح من كلمات أحمد شوقي.

ولكن كان أكثر الألحان شهرة ما قدمه فريد الأطرش بأغنيته «ما أقدرش على كده» وأغنية «وشوي شوي يا بنية».

الغناء الوطني

منذ أواخر السبعينيات عاد بلان إلى سورية بشكل نهائي وأصبح يقضي جل وقته في السويداء حيث ابتاع لنفسه أرضاً زراعية، وعمل على تأسيس فرع لنقابة الفنانين في المنطقة الجنوبية، وبدأ المرحلة الثالثة والأخيرة من مسيرته الفنية حين التقى الشاعر والموسيقي سعدو الذيب الذي قدم له واحدة من أجمل أغانيه وهي «يوماً على يوم» ثم أغنيتي «سلامين» و«غالي علينا يا جبل».

تميز بلان بأدائه للغناء الوطني، فلم تخل مناسبة وطنية إلا وغنى لها، فقد غنى للوطن العربي أغنية «وطني امتد وصار كبير» و«تهنا يا عربي»، وغنى لسورية من كلمات علي عقلة عرسان وألحان أمين الخياط «تعيشي يا بلدي» و«يارب تبارك سورية» للملحن إيلي شويري، وغنى لثورة الثامن من آذار المجيدة أغنية من ألحان عبد الفتاح سكر «ثورة تعيد الأرض» و«لو أعطيت الثورة» للملحن رياض البندك، وكان للحركة التصحيحية نصيبها إذ غنى لها ثلة من الأغاني منها «حيو الشآم» و«سيف الحق» و«سورية تشارين الغار» و«من يوم ولدنا يابلدنا» و«فارس التصحيح» و«صباح الخير يا بلدنا».

كما غنى للقدس وللشعب الفلسطيني من ألحان محمود الشريف «المسجد الأقصى» و«القدس الشريف».

وهل ننسى أغنيته الشهيرة التي غناها بعد نكسة حزيران فأثارت مشاعر الكبرياء بعد الانكسار وهي «ويلك يلي تعادينا ويلك يا ويل.. شبه النار تلاقينا بظلام الليل».

جلطة دماغية

مع قدوم سنة ١٩٩٧ أصيب فناننا الكبير بنزيف في الدماغ ونقل إلى المستشفى وعندما عاد أخذ بأسلوبه الريفي البسيط يخفف من خوف الأقرباء والمعجبين ورجال الصحافة ويصف النزيف بالخثرة البسيطة، ولكن الأعراض تفاقمت وأدت إلى جلطة دماغية حادة لم تمهله حيث توفي في ٢٦ آب من السنة نفسها عن عمر لم يتجاوز ٦٤ عاماً.

أميرة الرومانسية

كانت النساء يتسابقن لنيل وده والتقرب إليه حتى كانت تلك القصة الشهيرة التي جمعت بينه وبين أميرة الرومانسية الفنانة الراحلة مريم فخر الدين، فقد كانت تعاني قصص زواج فاشلة من زوجها الأول المخرج والمنتج محمود ذو الفقار، ثم زيجتها الثانية من الدكتور محمد الطويل، وبالتالي كان بلان هو المنقذ من تلك الأزمات والضربات التي تعرضت لها.

كانت فخر الدين تنوي الإقامة معه في شقتها الخاصة التي كانت تقيم فيها مع أزواجها السابقة، ولكن بلان رفض بشدة مبدأ الإقامة في الشقة ذاتها التي عاشت فيها مع زوجيها السابقين.

وألقت إحدى المجلات الفنية الشهيرة عام ١٩٦٩، الضوء على تلك الأزمة التي تواجه زواجهما، فقد امتنع الزوج عن الحديث في أمر الإقامة على الإطلاق ولم يقبل أي حديث من زوجته ليتنازل عن شرطه، وبعد إتمام الزفاف أقاما في فندق «نيل بالاس» وظلا هناك لما يقرب من الشهرين ارتبكت خلالهما حياتهما، فلم يكن يعرف مكانهما أحد ولم يتزاورا مع أحد من أصدقائهما، كما كانت النفقات باهظة للغاية وكل ذلك في الوقت الذي تعثرت فيه العروض الفنية لكليهما.

> تزوج ست مرات.. وهذا شرطه للزواج من مريم فخر الدين

حاولت فخر الدين البحث عن مسكن آخر من دون جدوى، فالأمور المادية وقتها لم تكن تسمح بشراء شقة جديدة تتناسب مع وضعهما الاجتماعي، ولم يقتنع بلان بالانتقال إلى مسكنها الخاص إلا بعد ما وعدته بأنه انتقال مؤقت حتى يفرجها الله بشقة أخرى.

وقد تزوج المطرب الراحل ست مرات، الأولى كانت من قريبة له في ضيعته، والثانية كانت من زميلة له في الإذاعة تعمل على الآلة الكاتبة حين اختير مطرباً في الكورس، والزوجة الثالثة ناتاشا الرياشي، على حين كانت فخر الدين الرابعة، والمكسيكية عربية الأصل سامية أبو الحسن الخامسة، أما السادسة فهي الممثلة آمال عفيش التي كانت في يوم من الأيام نجمة فرقة شوشو المسرحية.

آراء وشهادات

المطربة أم كلثوم: «يعد مطرب الرجولة الراحل فهد بلان لوناً جديداً في الغناء العربي».

الملحن محمد الموجي: «إن صوت فهد بلان يمتاز بالقوة والجمال».

المطرب والموسيقار سيد مكاوي: «أنت تعطي فهد اللحن شجرة عارية فتسمع منه اللحن مزهواً بأجمل الأثمار».

الشاعر والكاتب سعدو الذيب: «صوت فهد بلان من الأصوات النادرة في الوطن العربي إذ يتجاوز «الأوكتافين» في المفهوم الموسيقي وهذا ما يسهّل عمل أي ملحن، يكون الملحن في هذه الحالة منطلقاً في خياله الموسيقي لا تحده عدة مقامات قليلة يعمل عليها كأصوات مميزة من المطربين وهذا ما يأسر الفنانين الذين عملوا مع هذا الصوت الجبار إذ لا يعجبهم الانتقال إلى صوت آخر والمغامرة مع فنان آخر».

الكاتب علي عقلة عرسان: «فهد بلان فارس الأغنية وتليق له العباءة، وعاشق يتماهى مع عشقه الغناء».

الشاعر شوقي بغدادي: «من المطرب الذي يمكن أن نسميه سورياً حقاً بعد رحيل «فهد بلان»؟ من يملك صوته وأصالته وموهبته وقدراته الخُلقية والفنية الفطرية على اختراق الأوساط الفنيّة العربية جمعاء من دون أن يضحي بشيء من أصالته؟».

الشاعر سميح القاسم: «فهد بلان ظاهرة فنية غير متكررة».

وأخيراً

يشار إلى أن خزينة فهد بلان الغنائية تضم نحو ألف أغنية حملت تواقيع كبار الملحنين العرب، وحصل على وسام الفنون من الدرجة الأولى في سورية، وعلى وسام الاستحقاق للفنون في كل من ليبيا والمغرب.

فشكل خلال مسيرة حياته ظاهرة فنية من الصعب أن تتكرر واستطاع أن يحقق مكانة في خريطة الغناء العربي فكان السفير الأول للأغنية السورية ورائد الأغنية الشعبية التي حمل لواءها بإصرار ونقل معالم جمالها إلى أنحاء العالم.

سورية أمنا.. وجعها يرهقنا

| ولاء جمعة

كانت ملقاةً على الفراش هزيلة شاحبة بعد أن نالَ منها العمر، ولكنها لطالما كانت قديمة وعريقة وبالرغم من ذلك تبدو في أوج شبابها تضاهي كل اليافعات من أشقائها ولكن ما الذي تغير فجأة ماذا أصابك أيتها الأمُ الرؤوم؟

ما الذي بدل حالك؟ ما الذي أدمع عينيك؟ ما الذي ألزمك الفراش وأنت أمٌ لعشرة أولاد أو يزيدون؟ أفنيت عمرك تشقين في تنشئتهم وتربيتهم وتعليمهم ورعايتهم يعيشون جميعاً ويتنعمون في أحضانك لم تبخلي يوماً عليهم بل أعطيتهم أكثر مما طلبوا، فكيف نراك اليوم عاجزة مكسورة وحزينة، أين ذهبوا؟ أين هم؟ لن أطيل السؤال، قد عرفت الإجابة فإذا ما نقلت عينيّ إلى زاوية الغرفة وإذا بي أرى ابنيها أكبرهم وأصغرهم وقد اختلف كلاهما بالرأي والتفكير والاتجاه، لكل غايته ورغباته وميوله يرفض أن يسمع أحدهما الآخر فترى الإخوة جميعهم انقسموا فيما بينهم فمنهم من يلتف حول الأكبر ومنهم حول الأصغر يؤيدون من اختاروا ممثلاً عنهم، ها هي أصواتهم ترتفع ليسكت أحدهما الآخر محاولاً فرض رأيه وإخماد نظيره برفع الصوت وتعالي الصراخ الذي يكاد يلتف حبلاً على رقبة الأم، دموعها تحرق وجنتيها، تناديهم محاولة لفت انتباههم «ساعدوني أنقذوني أنا مريضة أنزف الدم وأشكو الجروح، أرهقني وجعي وأضناني ألمي وساءت حالتي هل منكم أحد يحضر دوائي» تصرخ بصوتها الجاف راجية أن يسمعها أحد أن يلبي نداءها أحد، لكنها كمن يصيح في البيداء فلا عين تنظرها ولا أذن تسمعها فأصوات الأبناء المتعالية ملكت جو الغرفة وأثقلها حتى تدخل الأقارب والأغراب لحل النزاع ولكنهم كانوا أشبه بشعلة أججت النفوس بنيران الحقد والكره حتى أعمت عيون الأبناء وقلوبهم، فتأزم الحال حتى دفع بالأم لتقترب من المنية راقدة على فراشها تنتظر الساعة، ترمق أولادها يتشاجرون ويتنازعون على ما صغر من الأمر وما كبر منه يائسة من جواب يشفيها أو من لهفة تداويها، ها هي تنظر النظرة الأخيرة وترى بعضاً منهم يلم حاجاته ويغادر إلى غير رجعة، مل النزاع والصراع تاركاً وراءه الأم التي لطالما نام بحضنها ونهل من حنانها، غادر من دون أدنى تفكير بحالها وهل هي بحاجة شيء أم ماذا؟ ولكن ما الفائدة؟ روحها وصلت البلعوم، أحكمت قبضتها على الفراش تمتص أوجاع الموت، بللت دموعها الوسادة، غرقت بدمها والتهبت جروحها، بالكاد تفتح عينها لتودع أولادها فمازالوا على حالهم الأولى ولكنها تحبهم يحزنها فراقهم ولكن ما الجدوى؟ ها قد وافتها المنية فغدت جثة هامدة بلا حراك ولطالما كانت «زهرة بلاد الشام» سورية الغالية لم يدركها أبناؤها إلا بعد ما خسروها أقبلوا على الفراش يتهافتون ويصرخون ويندبون ويكثرون النواح إلى أين ذهبت؟ لم تخليت عنا؟ هل من المعقول أن تكون أنانيتنا سبب موتك؟ ويلنا ويا ويل حالنا قتلناك بجهلنا، ذبحناك بخيانتنا، فبئس الأولاد ونحن بذهابك غدونا ضعافاً هشين لقمة سائغة لمن يشتهي ويريد، امحت كرامتنا وزالت هويتنا وتدهورت حالنا واسودت أيامنا، ظلمناك وظلمنا أنفسنا، ليتنا وعينا الخطر وتداركناه قبل فوات الأوان اذهبي أمنا، اذهبي فإنك لم تذهبي إلا كما كنت معطاء وصدراً خصباً رحباً ولكن نحن الأشقياء الأغبياء، اذهبي واستغفري لنا علّ الرحمة تنزل علينا فيعود إلينا رشدنا.